الخطاب الاستشراقي في ميزان النقد:
نظرات في موقف وائل حلاق من الاستشراق

Orientalist Discourse in the Balance of Criticism: Perspectives on Wael Hallak's Position on Orientalism

د. محمد رياض الدقداقي

جامعة قابس

تونس

mohamedryadh@yahoo.fr

الخطاب الاستشراقي في ميزان النقد:
نظرات في موقف وائل حلاق من الاستشراق

د. محمد رياض الدقداقي

ملخص:

نسعى في هذه الورقة إلى تبين ملامح النقد الذي وجهه المبكر الفلسطيني وائل حلاق إلى الخطاب الاستشراقي من خلال تفكيك بنيته وتقييم مراميه.

ويتنزل مجهود حلاق في إطار محاولة تعديل ودحض الكثير من المقولات والأحكام التي لطالما روجت لها الإسلاميات الكلاسيكية والتي عكست في جانب منها ملامح الوجه الآخر للتنوير الغربي قياسا بما حفلت به مصنفات المستشرقين من تحيز صريح للثقافة الغربية، نظير إزرائها بما عداها من الثقافات. وهو يجعل الخطاب الاستشراقي أقرب إلى السجال الأيديولوجي وأعلق بمقولة المركزية الغربية.

الكلمات المفاتيح: وائل حلاق، الاستشراق، الغرب، ادوارد سعيد، الحداثة، الكولونيالية.

Abstract:

In this paper, we seek to identify the features of the criticism that the Palestinian thinker Wael Hallak addressed to the Orientalist discourse by deconstructing its structure and evaluating its objectives.

Hallak's effort falls within the framework of an attempt to modify and refute many of the assumptions and judgments that have long been promoted by classical Islamism, some of which reflected the other side of the Western Enlightenment, compared to the explicit bias of the Orientalist literature favoring Western culture while neglecting other cultures. This makes Orientalist discourse closer to ideological debate and more attached to the notion of Western centrality.

Keywords: Wael Hallak, Orientalism, West, Edward Said, modernity, colonialism.

1- مقدمة:

من المعلوم أنّ الاستشراق قد استأثر بحيز لافت في المشهد الفكري العربي المعاصر. ولا شكّ في أنّ هذا الاهتمام يعكس حرص النخب العربية على فكّ مستغلقات المعضلة الرئيسيّة التي شغلت بالهم على امتداد عقود والمتمثّلة في مراجعة علاقة الأنا العربي المسلم بالآخر، الغربي، وتحديدا بالرّصيد الفكري الذي كوّنه حول المجال الحضاري العربي الإسلامي وذلك بوضعه على محكّ النقد.

وقد كان المفكّر الفلسطيني الراحل ادوارد سعيد (1935 - 2003) أفضل ممثّل لهذه اللّحظة من خلال كتابه العمدة "الاستشراق".

وليس يخفى أنّ الاستشراق هو سليل فلسفة التنوير التي ذاع صيتها في البلاد الغربيّة، قبل أن تنتشر في مختلف أصقاع المعمورة بغرض تكريس أفضليّة الحضارة الغربية ومركزيّتها. وقد تجلّى هذا المسعى في الأدبيات الاستشراقية، قبل أن يسفر عن وجهه من خلال الحدث الاستعماري.

وسنحاول في هذه الورقة النظر في مقاربة الباحث الفلسطيني وائل حلاق،[1] الذي عاش أغلب حياته في الغرب واحتكّ بثقافته وبمثقّفيه، لكنّه لم يلازم موقع المتعجّب أو المتلقي الباهت لما أنتجه الفكر الغربي وتحديدا التيّار الاستشراقي، بل قارع هذا الخطاب ونبّه إلى الكثير من مطاعنه.

فكيف تعامل حلاّق مع الخطاب الاستشراقي؟ وما هي أبرز الهنات التي عابها عليه؟ وإلى أيّ حدّ نجح المفكّر الفلسطيني في كبح جماح الحداثة الغربيّة ومنزعها الهيمني؟

2- بين وائل حلاّق وادوارد سعيد:

يعتقد وائل حلّاق أنّه على أهميّة المجهود الذي قدّمه ادوارد سعيد في قراءته التحليليّة لظاهرة الاستشراق، فإنّ نظرته اتّسمت بالقصور. ذلك أنّ سعيد اعتبر الاستشراق مشروعا سياسيّا. وقد تعاضدت جهود المستشرقين في تقديم صورة سلبيّة عن الشرق بعيدة عن الحقيقة، وقد كانت تلك الصورة المهاد النّظري لنزعة الهيمنة التي تملّكت الغربيّين قبل أن تتجسّد فعليّا بواقعة الاستعمار والتي أقّتت لبداية بسط الامبريالية الغربيّة نفوذها على الشرق.

وقد وسم حلّاق خطاب أستاذه حول الاستشراق، بكونه خطابا هادما للشرق الإسلامي وهو ما يعكس فشله في الكشف من حقيقة الاستشراق وعمق الوشائج التي تصله بالحداثة، حيث ساهم في الإساءة إلى مصطلح الاستشراق، وأصبح كلّ مستشرق مدانا. فـ **"الاستشراق هذا المصطلح البسيط ذو المفهوم المركّب - قد أسيء فهمه بشدّة، بل وتحوّل فعليّا - وبسبب كتابات ادوارد سعيد الى حدّ ما - إلى شعارات**

1- وائل حلاق (1955 —) مفكّر فلسطيني الأصل كندي الجنسيّة ولد بالناصرة، متخصّص بالقانون وتاريخ الفكر الإسلامي، من أهم مؤلّفاته. الشّريعة، الدولة المستحيلة، هل سدّ باب الاجتهاد؟، نشأة الفقه الإسلامي وتطوّره.

سياسية بدائيّة، وكلمات هتافيّة تجد لها مكانا خصبا في حقل الاستعراض اللّغوي الأيديولوجي. وأصبح وصف باحث ما بأنّه مستشرق ضربا من الإدانة ونعتا سلبيّا" [1].

ويخالف حلّاق سعيد الرّأي في اعتبار الإسلاميّات الكلاسيكيّة سببا مركزيّا في تشويه الغرب الإسلام، بل هو مجرّد عرض من أعراض المعرفة الغربيّة الحديثة. كما تتباين وجهتا نظرهما حول الجذور التاريخيّة اللّامتناهية، والامتداد الجغرافي الذي ينسبه ادوارد إلى ما يراه نشاطا استطراديّا بالاستشراق. فهو يعتقد أنّ المستشرقين موجودون في كلّ مكان من اليونان القديمة إلى علماء اللاتينيّة في القرن الثّالث عشر إلى فرن غرونباوم وبرنارد لويس وأمثالهما في القرن العشرين، بعكس حلّاق الذي حصر نطاق الاستشراق التاريخي، لأنّ الاستشراق لم يكن قبل الحداثة، فهو مجرّد ظاهرة تاريخيّة برزت مع التوسّع الاستعماري خلال القرن الثّامن عشر.

ولا ريب في أنّ رؤية سعيد هي ترجيع لخلفيّته الايديولوجية الليبراليّة العلمانيّة، وبالتّالي فهي جزء من النّظام الايديولوجي الغربي، آية ذلك أنّه لم يتوجّه بالنّقد إلى الليبراليّة العلمانيّة. كما أنّه تجاهل إدخال القيم والتقاليد الدينيّة وخاصّة الإسلام في التخصّصات التي شارك فيها[2]

ويرى حلّاق أنّ أيّ نقد سياسيّ صحيح للاستشراق لا بدّ أن يبدأ بالأسس التي خلقت تصوّرا معيّنا للطبيعة والليبراليّة والعلمانيّة والإنسانويّة العلمانية والتمركزيّة الانسانيّة والرأسماليّة والدولة المدنيّة وغيرها من المفاهيم التي طوّرها المشروع الحداثي. لذلك ظلّ نقد سعيد سياسيّا بالمعنى التقليدي الذي لم يسائل أيّا من أنماط الفكر والحركة الأساسيّة والمؤسّسة التي خلقت مشكلة الاستشراق.

وبالجملة، فقد بقي سعيد يحرث حقولا سياسيّة تقليديّة، لأنّ سرديّته النقديّة افترضت وجود الفرد السّياسي نفسه أي الفرد الحداثي وأبقت عليه باعتباره القالب الصلد لتلك الأنماط كلّها[3].

فضلا عمّا تقدّم، فقد عاب حلّاق على أستاذه تناول الاستشراق كنصّ أدبيّ وزهد في البنى المعرفيّة والسياسيّة التي أنتجت الاستشراق، وهي بنى يرى أنّها ألصق بالقوة منها بالمعرفة، وعذره أنّه ناقد أدبيّ يفتقر إلى الحسّ التاريخي، فلقد **"بدأت المشكلة جزئيّا في الأسلوب الأدبي الذي يتبنّاه سعيد والذي أدّى إلى أن تظل إشكاليّات الحداثة المركزيّة بمنأى عن التمحيص والذي خلّف لنا تفسيرا بسيطا وحتّى سطحيّا لتلك الإشكاليات"**[4] فاهتمام سعيد بالأدب، جعله يخاطب الوجدان والعواطف ويترك ما هو واقعي أو منطقي. وهو ما جعل مشروعه ينزاح عن إطار النّقد البنّاء للفكر الاستشراقي ويكون أعلق بالسّياسة. فتستحيل الإسلاميّات الكلاسيكيّة سلاحا بيد المستعمرين يوظّفونه ابتغاء إفراغ الشرق من محتواه العلمي والمعرفي، وإحلال فكرة التبعيّة وتقزيم الذّات محلّه.

1- وائل حلّاق، **قصور الاستشراق**، ص29.

2- راجع كمال رمضاني، **نقد وائل حلّاق للخطاب الاستشراقي**، ص40.

3- راجع حلّاق، **قصور الاستشراق**، ص30.

4- المرجع نفسه، ص30.

وممّا يهوّن من شأن الطرح الادواردي، اعتباره أنّ معرفة الغرب بالشرق تمّت عن طريق الاستشراق وهو ما مهّد للهيمنة الاستعماريّة. وهذا التعميم في تقدير حلاّق مخلّ، إذ لا يندر وجود إسهامات استشراقيّة تحلى أصحابها بالمصداقيّة والموضوعيّة. فكانت إضافتهم على حظّ لافت من الطّرافة في الكثير من التخصّصات على غرار إنتاج المدرسة الاستشراقيّة الألمانيّة، لذلك "**يصعب على المرء الاتّفاق مع ادوارد سعيد في أنّ كلّ ما قام به المستشرقون من حفريّات وفكّ لرموز الحضارات واللّغات القديمة وتحقيق للمخطوطات التاريخيّة مثّلا مجرّد تشويه لتلك اللّغات والحضارات، وأنّ تلك الجهود الجبّارة والمخاطرات العظيمة بحياتهم لا يعدو أن يكون الدّافع من ورائها خدمة المطامع الاستعماريّة والتوسّع الامبريالي** "[1].

ولا يخفى على الرّائي بعين الموضوعيّة أنّ أنصع هنات عمل سعيد هي محاولته إثبات أوجه الخلاف بينه وبين الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو Michel Foucault (ت 1984) فيما يخصّ البصمة المحدّدة، فإذا كان صاحب "الكلمات والأشياء"، يستبعد ذات المؤلّف في تحليل الخطاب، لقاء التركيز على النصّ، أي الفصل بين النّص وصاحبه، فإنّ صاحب "الثقافة والامبرياليّة"، ينتصر لوجود أواصر متينة بينهما، معها يتعذّر الفصل بين المؤلّف والكتاب. بيد أنّ مقاربة حلاّق تختلف عن مقاربتي فوكو وسعيد معًا لاعتقاده أنّ الاستشراق هو نتاج منظومة فكريّة حداثيّة ولدت من رحم فلسفة التنوير التي ازدهرت في البلاد الأوروبيّة منذ قرون. لذلك يقرّ حلاّق نتيجة مفادها أنّ ادوارد سعيد لم يفهم نظريّة المؤلّف وبالتّالي لم يعمل في إطارها بما أنّ همّته قد تعلّقت في ما حبّره، باستقطاب الجماهير ولو على حساب الاستشراق عندما حصره في دائرة السّياسة، فقد "**فشل سعيد في فهم المدى الكامل لقدرة الاستشراق المدمّرة باعتباره نسقا حداثيّا من القوّة**،"[2] لذلك يعتقد حلاّق أنّ كتاب ادوارد سعيد ظلّ متجذّرا في سلسلة من المقدّمات والاقتراحات التي تؤيّد المواقف الحداثيّة والليبراليّة نفسها التي أدّت إلى نشأة الاستشراق في المقام الأول، فقد فشل في النّظر إلى بنية القوّة / المعرفة بصورة جادّة. علاوة على أنّ مفهوم المؤلّف عند سعيد، بل وعند فوكو نفسه ظلّ قاصرا إن وجد أصلا. وبسبب هذا القصور اتّسم فهم سعيد لما يعنيه الشكل الخطابي بالسطحيّة، بخلاف أفكار الفيلسوف الفرنسي التي مهما ظلّت بدائيّة فيما يخصّ المؤلّف، فإنّها مع ذلك تبقى واعدة وبنّاءة أكثر من أيّ نظريّة أخرى. فأفكار فوكو عن القوّة والمعرفة والمؤلّف في سياق نظريّة النّطاقات المركزيّة والهامشيّة والتي تتعزّز قيمتها من خلال توفير بعد تاريخيّ لتحليله الذي تغلب عليه الصبغة التزامنيّة، بإمكانها أن تفتح آفاقا رحبة تحلّ محلّ السّدود التي بناها سعيد[3].

وممّا يؤاخذ به كتاب "الاستشراق" من منظور وائل حلاّق هو تزاوج غياب التّحديد التّاريخي للاستشراق مع تداخلات جغرافيّة تستعصي على الفهم. أو أن ينظر إلى اسخيلوس وهوميروس ودانتي ورينان وماسينيون بالطّريقة نفسها، لأنّ المشترك الوحيد بين هؤلاء في منطق سعيد هو تناولهم "الشّرق"، وأحيانا "المشرق" من

1- هاشم صالح، **الاستشراق بن دعاته ومعارضيه**، ص88.

2- المرجع نفسه، ص171.

3- راجع المرجع نفسه، ص362.

منطقة جغرافيّة تعرف بالغرب، واقترن قصر النّظر التّاريخي بغياب التّحديد الجغرافي في كتاب سعيد. وقد أفرز هذا التشوّش التّاريخي والجغرافي صورة لا يستسيغها العقل ولا يقرّها المنطق وهو ما أفقد خطاب سعيد التماسك الدّاخلي المطلوب وأضعف حظّه من الحيويّة على اعتبار افتقار كتابه إلى التّحديد الدّقيق لمجال دراسته[1].

ولكن على الرّغم من كلّ النّقائص التي شابت مجهود سعيد، فإنّ صاحب "الدّولة المستحيلة" يرى أنّ كتاب "الاستشراق" يظلّ مقدّسا على الرّغم من كونه إشكاليّا، بيد أنّ القداسة لا تنفي إمكانيّة تجاوز الكتاب أو تقديم بديل له، ولا هي تأكيد أبديّ على صدق أفكاره، لنستمع إلى ما يقوله وائل حلاّق " **يزوّدني كتاب سعيد إذن بالشّرارة وليس الأدوات التي أحتاجها للإبحار في مياهه الخاصّة، وإذا صحّت الاستعارة قد أقول إنّني في هذا الكتاب أختطف سفينة سعيد لأعيد تجهيزها بما يلزم لاستكشاف محيطات نظر إليها سعيد بالكاد من بعيد أو لم يدركها أصلا** "[2].

3- بنية الخطاب الاستشراقي:

يرى المفكّر الفلسطيني أنّ الاستشراق هو أحد منتجات الفكر الحداثي، وقد انتدب نفسه لتفكيك بنية هذا الفكر الذي من رحمه ولدت الإسلاميّات الكلاسيكيّة. ولا يعسر على المطّلع على الرّصيد الفكري الاستشراقي تبيّن طبيعة الأهداف التي رسمها المستشرقون لحظة اتّخاذهم التراث العربي الإسلامي مادّة بحثهم. كما أنّه من اليسير تبيّن الغاية من توظيفهم مناهج بعينها عند مباشرتهم هذا التّراث. فقد تعلّقت همم أغلب المستشرقين بتقويض أركان الجهار المعرفي الإسلامي وكشف هشاشة المذهبيّة الإسلاميّة، بما يسوّغ لهم ترسيخ الادّعاءات القائلة بأنّ العالم الإسلامي في الدرك الأسفل من الحضارة، جرّاء ما ران عليه من انغلاق وتزمّت، وأنّه لا خيار أمامه إلّا التتلمذ على الحضارة الغربيّة كي يبرح هذا الدّرك. فالعقل الإسلامي معطّل منذ قرون بسبب غلق باب الاجتهاد وفسح المجال للتقليد والاجترار. كما أنّ الشّريعة الإسلاميّة باتت عتيقة بالية، غير قادرة على معايشة الواقع ولا الاستجابة لمتطلّباته المتجدّدة.

يتقاسم حلّاق والكثير من المفكّرين الغربيّين - ومن بينهم المستشرقين - تبنّي عدّة مبادئ وعقائد فكريّة، بيد أنّه يخالفهم في مقاربة الموضوعات التي يشتغلون عليها، بما أنّهم لا يقيمون وزنا للانتقادات التي تأتي من الخارج، أي من جهة المفكّرين العرب، وبالتّالي فإنّ زعزعة هذا الفكر لن تتحقّق "**من خارج نطاق هذا الفكر الاستشراقي (...) إذ إنّه قد نجح في تهميش جميع الانتقادات التي قدّمها الكتّاب العرب والمسلمون من خارج معاقل هذا الفكر تهميشا كاملا** "[3].

1- راجع المرجع نفسه، ص66.

2- المرجع نفسه، ص36.

3- حلّاق، **تاريخ النظريّات الفقهيّة في الإسلام، مقدمّة في أصول الفقه**، ص6.

وقد تمحور نقد حلاّق للخطاب الاستشراقي حول ثلاثة جوانب: أوّلها الردّ على الأسطورة الاستشراقيّة القائلة بعدم أصالة الفقه الإسلامي. وثانيها، نقد المقولة التي تعتبر الشافعي يمثّل بالنّسبة إلى أصول الفقه ما يمثّله أرسطو بالنّسبة إلى المنطق. أمّا الجانب الأخير فيتعلّق بمسألة غلق باب الاجتهاد[1].

3-1- نقد مقولة "عدم أصالة الفقه الإسلامي":

يعتبر صاحب "قصور الاستشراق" أنّ الأبحاث الاستشراقيّة تركّزت على نشأة الإسلام مقابل التغاضي عن الفترة الوسطى بين النشوء والعصر الحديث، حيث كان مشغلهم الرئيس النظر في بداية القرآن والحديث والفقه. ويعتقد وائل حلاّق أنّ منتصف القرن الأوّل يؤقّت لنشأة الفقه الإسلامي وليس بداية القرن الثاني مخالفا آراء الكثير من مجايليه، بهدف تفنيد مطاعن أهل الاستشراق في خصوص عدم أصالة الفقه الإسلامي. وقد عزّز حلاّق حجته بما توصّلت إليه الحفريّات المعاصرة في الجزيرة العربية حيث أكّدت على " **قيام حضارة مدنيّة مكينة في عدد من نواحيها، عرفت حياتها استقرارا أفاد من نشاط حركة التّجارة بالمنطقة وهو ما سهّل تأثير القبائل العربيّة بغيرها من الشّعوب في الممالك المتاخمة، بل حتّى في الامبراطوريّات البعيدة لإثبات أنّ هذه المنطقة كان لها حضور ثقافيّ واضح ولم تكن منطقة فراغ ثقافيّ وتشريعيّ على نحو ما يصوّر الاستشراق**"[2].

3-2- نقد مقولة "الشافعي هو مؤسس أصول الفقه":

عمل حلاّق على دحض الرؤية الاستشراقيّة التي لطالما كرّسها كلّ من جوزيف شاخت وأرنست غولدزيهر والقائلة بأنّ الشافعي هو مؤسّس علم الأصول، لذلك دعا إلى ضرورة مراجعة هذه المقولة التي ارتقت مع الوقت إلى مسلمة لا تقبل المناقشة ، حيث يتواتر ذكرها في مختلف الدّراسات التي اتّخذت تاريخ الفقه الإسلامي مادّة بحثها إذ "**أصبح الشافعي العلم والحجّة الذي لا يشقّ له غبار والذي لم يسبق أبدا في عبقريّته الشرعيّة حتى وإن قارناه مع عباقرة الشريعة المتأخّرين مثل الإمام الجويني والغزالي و ابن رشد و ابن تيميّة وغيرهم من فحول العلماء. هذا التصوّر يكمّل الأسطورة الاستشراقيّة القائلة بأن التّاريخ الإسلامي عانى من تدهور متواصل بدأ ظهوره في الشّريعة بعد وفاة الشافعي**"[3]. لذلك ينتصر وائل حلاّق صراحة إلى اعتبار علم الأصول هو نتاج صيرورة تاريخية طويلة يدين خلالها إلى الشافعية كمنظومة فقهيّة كان لها إشعاعها وامتدادها وأنضجتها إسهامات الكثير من الفقهاء، وليس الشافعي فحسب.

1- راجع كمال رمضاني، **نقد وائل حلاّق للخطاب الاستشراقي**، ص93-95.
2- حلاق، **تاريخ النظريّات الفقهيّة في الإسلام**، من33.
3- المرجع نفسه، ص181.

3-3- نقد مقولة "غلق باب الاجتهاد":

يرفض حلّاق المقولة التي روّجتها الاسلاميّات الكلاسيكيّة حول غلق باب الاجتهاد. فلم يحفل بأدلّة المستشرقين، بل سارع إلى تفنيد موقفهم من خلال طرح جملة من الأسئلة: "**إذا كان باب الاجتهاد قد انسدّ، فكيف نجح المسلمون إذن في العيش في ظل حكم الشريعة طوال قرون كثيرة جدّا بعد حدوث ذلك الانسداد المزعوم؟ وإذا كان باب الاجتهاد قد انسد، فلم انسدّ؟ ومن سدّه؟ وكيف سوّغ الفقهاء والأصوليون ذلك الانسداد؟**"[1] وابتغاء إثبات تهافت حجّة المستشرقين القائلة بانسداد باب الاجتهاد، بدءا من القرن الرّابع، وبعد اطّلاعه العميق على كتب أصول الفقه، اتّضح للمفكر الفلسطيني أنّ المجتهدين كانوا يزاولون اجتهادهم على أرض الواقع في انسجام تامّ مع ما سطّرته المدوّنة الأصولية، وأنهم لم يجنحوا إلى التقليد إلّا بداية من القرن العاشر للهجرة وليس خلال القرن الرّابع للهجرة. فالضّوابط التي أقرّها الأصوليّون والتي من أبرزها الاطّلاع المعمّق على الأحاديث النبويّة والقدرة على تمييز الصّحيح منها من الضّعيف، فضلا عن إجادة اللّغة العربيّة والاطّلاع على كتب الفروع ومسائل الاجماع لم تمنع الفقهاء من الاجتهاد وقد كانت للمجتهدين خلال القرنين الثّالث والرّابع للهجرة تفسيرات شخصيّة واضحة للفقه على غرار ابن عبد البرّ الذي خصّص بابا أنكر فيه التقليد واستشهد بآيات كثيرة في هذا الشأن، وقد أيّده في هذا التوجّه كلّ من الماوردي والخطيب البغدادي.

ويعتقد وائل حلّاق أنّ الفكر الفقهي ظلّ في تطوّر مستمرّ بفضل إسهامات قامات لامعة على غرار إمام الحرمين الجويني وتلميذه الإمام الغزالي وغيرهما ممّن أثروا المشهد الفقهي بإضافات سخيّة واجتهادات معتبرة تزخر بها المصنفات الفقهيّة التي تعود إلى القرن الرابع للهجرة وهو ما يقوّض فعليّا المزاعم الاستشراقيّة[2].

4- من نقد الاستشراق إلى نقد الحداثة:

ليس من فائض القول أنّ نقد الاسلاميّات الكلاسيكيّة لم يكن سوى مطيّة بالنّسبة إلى صاحب "قصور الاستشراق" لنقد الحداثة على اعتبار أنّ الاستشراق هو أحد تجلّياتها، وأداة من أدوات الهيمنة على الشرق. فالإسلاميّات الكلاسيكيّة منتج حداثي لا صلة له بالمجال الحضاري العربي الإسلامي، ذلك أنّ الحداثة الغربيّة هي محصّلة تفاعلات الفكر الغربي مع بيئته التي تختلف جوهريّا عن نظيرتها العربيّة الإسلاميّة.

وغنّي عن التأكيد أنّ الإخفاقات المتتالية التي مني بها العرب والمسلمون تعود بالأساس إلى إصرارهم على غربلة المجال الحضاري الإسلامي قسرا من خلال إخضاعه إلى ذات المقولات التي حكمت مسار الحداثة الغربية. بعد أن فتنوا بما رأت أبصارهم وأدركت بصائرهم من مظاهر الرقي. وفاتهم أنّ كلّ بيئة حضارية تحتكم إلى منطق تفرضه معطيات التّاريخ والجغرافيا واللّغة والعقيدة، والتي من دونها يكون البناء

1- حلّاق الشّريعة، **النظريّة والممارسات والتحوّلات** ص13.

2- راجع الرمضاني، **نقد وائل حلّاق للخطاب الاستشرافي** ص104-105.

الحضاري هجينا لافتقاره إلى الخصوصيّة وإلى عوامل التطوّر الذّاتي. وعطفا عمّا تقدّم، قمين بنا أن تتساءل: فيم تتمثّل انتقادات حلّاق للحداثة الغربيّة؟

يرى صاحب كتاب "الشريعة" أنّ المشروع الاستشراقي الذي كان لبنة أساسيّة من لبنات البناء الكولونيالي. هو أسّ" جوهريّ من أساسات الحداثة التي أعادت تشكيل قيم الأوروبيّين أنفسهم ونظرتهم الكونيّة. فقد عاش الأوروبيّون في ظلّ الحداثة التي مثّلت العالم الوحيد الذي عرفوه باعتباره نظاما وجوديّا ومعرفيّا وثقافيّا شاملا، وعلى الرّغم من أنّ المشروع الذي بشّرت به الحداثة كان يدّعي خدمة الانسانيّة قاطبة وإشاعة السّلام والرّخاء بين كافّة ساكنة المعمورة، فإنّه كان يستبطن النّزوع إلى الهيمنة على الأمم الأخرى من خلال فرض نموذجه الحضاري بما ينطوي عليه من بسط مختلف أشكال الهيمنة على باقي الشّعوب ونهب مقدّراتها ناهيك عن تدمير البيئة. وهو ما يجعل طرح سؤال من قبيل: لماذا يجب أن تكون أخلاقيّين؟ أمرا مشروعا بل ملحّا، ذلك أنّ هذا السؤال يعكس من منظور وائل حلّاق "**ورطة جوهرية في الحداثة والشّرط الحداثي فهو سؤال لم يسأله التّراث الإسلامي السائد في أيّ من أشكاله قبل الحداثية أو على الأقلّ لم يسأله بالطريقة التي طرحه بها الخطاب الحديث. وعلى حدّ علمي لم تطرحه كذلك أي ثقافة قبل حديثة فهو سؤال حديث في قوّته وصوغه وأصوله وناتج عن الشّرط الحداثي**"[1].

من البيّن إذن أنّ حلّاق ينشد المراجعة الجديّة لمفهوم القيم الذي صبغ الحداثة الغربيّة منذ تأسيسها والذي أسهم بشكل جذريّ في ما تتخبّط فيه المجتمعات الغربيّة من فوات قيمي جرّاء تجريد الانسان الغربي من أبرز مقوّمات انسانيّته وفتور الوازع الأخلاقي. ومن أنصع الآيات الدّالة على ذلك، مخاطر التفكّك التي تهدّد الأسرة الغربيّة، وضمور قيم التّضامن في المجتمع جرّاء استفحال النّزعة الفردانيّة وتفشّى الأنانيّة، فتراجعت منزلة الأخلاق وفصلت بالكامل عن دائرة الاهتمامات الجمعيّة. وبتهميش الأخلاق، استحالت الحداثة مشروعا اقتصاديّا وسياسيّا ذي خلفيّة مفصولة عن القيمة ومظاهرها[2].

ويتقاطع هذا الرّأي مع موقف الفيلسوف الكندي تشارلس تايلور الذي يعتقد أن بنية الهويّة الغربيّة تعاني ثلاث أزمات، جرّاء استفحال الصّراع بين الموروث القديم والقيم الحديثة، وتتلخّص هذه الأزمات في الفردانيّة المتطرّفة وسيادة العقل الأداتي والاستبداد النّاعم مع ما رافق ذلك من تنامي الأنانيّة واستشراء النّزعة الاستهلاكيّة المفرطة، فضمرت قيم التّضامن الجمعي، وصارت المجتمعات الغربيّة مجتمعات أفراد وأقليّات لا همّ لهم سوى مصالحهم الضيقة[3].

ولمّا كان التّرابط بين الأزمة الأخلاقيّة للحداثة والتقدّم التكنولوجي مكينا بما أن مراكمة الأرباح في ظل النّظام الرأسمالي قد أسهم بشكل لافت في تدمير القيم الإنسانيّة والطبيّعة على السّواء، فإنّ انفراج هذه الأزمة يتوقّف إلى حدّ كبير على تعرية الزّيف الذي ران على ادّعاءات الحداثة التي صيّرت الانسان مركز

1- حلّاق، **الدّولة المستقيلة**، ص210.

2- راجع الرمضاني، **نقد وائل حلّاق للخطاب الاستشراقي**، ص176.

3- راجع تشارلس تايلور، **منابع الذات وتكوّن الهويّة الحديثة**، ص41.

الكون مع ما يعنيه ذلك من استئثاره بالسّيادة والقوّة وطمس معالم الأنموذج المعرفي الذي أقرّته الحداثة حيث أزرى بشأن كلّ ما هو أخلاقي في البحث العلمي عملا بمبدأ: كلّ ما كان ممكنا وجب صنعه"[1].

5- الخاتمة:

كان غرض وائل حلاّق من اهتمامه بالخطاب الاستشراقي متمحّضا لتسليط الضّوء على جملة من المآخذ التي انتهى إليها بعد اطّلاعه على الأدبيات الاستشراقيّة التي هي سليلة المنظومة الحداثيّة الأنواريّة الغربيّة. وقد سعى المفكّر الفلسطيني إلى الردّ على مقولات الاستشراق وابراز مواطن الوهن فيها، اقتناعا منه بأنّ أمراض الاستشراق هي ترجيع لأعطاب الحداثة التي برزت بجلاء في واقع المجتمعات الغربيّة.

وقد عمل حلاّق على كشف زيف الكثير من المقولات الاستشراقيّة التي تعاملت مع التراث الإسلامي بقدر غير قليل من التحامل وهو ما جعلها أبعد عن الطّرح الفكري الهادئ وأدنى إلى السّجال الايديولوجي العقيم. لذلك أقرّ صاحب "الدّولة المستحيلة" بشيء من الاطمئنان بأنّ الكتابات الاستشراقيّة في أغلبها مرآة عاكسة للمنظومة الامبرياليّة الغربيّة ونواياها الاستعماريّة التي أسفرت عن وجهها خلال موجة الاستعمار التي انطلقت أواخر القرن التّاسع عشر واستمرت إلى أواسط القرن المنصرم، قبل أن تلبس خلال العقود المنقضية لبوسا جديدا متمثّلا في "القوّة النّاعمة" على حدّ تعبير جوزيف ناي عكس هيمنتها الاقتصاديّة والتكنولوجيّة وتصميمها على فرض نموذجها الحضاري على مختلف أصقاع المعمورة تحت مسمّى العولمة.

1- طه عبد الرحمان، **العمل الدّيني وتجديد العقل**، ص45.

المراجع:

الكتب:

1- تايلور (تشارلس)، **منابع الذّات، تكوّن الهويّة الحديثة**، تع حيدر حاج اسماعيل ط 1، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، 2014.

2- حلاّق (وائل)، **قصور الاستشراق، منهج في بعد العلم الحداثي**، تع عمرو عثمان ط 1، الشّبكة العربيّة للأبحاث والنشر بيروت، 2019.

3- حلاّق (وائل)، **تاريخ النظريّات الفقهيّة في الإسلام**، تع أحمد موصللي ط 1، دار المدار الإسلامي، بيروت 2007.

4- حلاّق (وائل)، **الشّريعة، النظريّة والممارسات والتحوّلات**، تع كيان أحمد حازم يحي ط 1، دار المدار الإسلامي بيروت2018.

5- حلاّق (وائل)، **الدّولة المستحيلة، الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة**، تع عمرو عثمان، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات الدّوحة، 2018.

6- الرمضاني (كمال) **نقد الخطاب الاستشرافي عند وائل حلاّق**، بحث مرقون جامعة باتنة الجزائر السّنة الجامعية 2022-2023 نسخة الكترونيّة.

7- عبد الرحمان (طه)، **العمل الديني وتجديد العقل**، ط1، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، 2007.

المقالات:

1- بن هبري (حليم) وباجي(أحمد)، **تجديد الخطاب الاستشراقي عند وائل حلاّق**، المجلّة الجزائريّة للأمن الإنساني، العدد 2 جويلية 2023.